أمرها بتجنب العطر ليلتها تلك فقال (**إذا شهدت إحداكن العشاء فلا تطيب تلك الليلة**)[1] .. فإن فعلت وتعطّرت منعها النبي من شهود الصلاة (**أيما امرأة أصابت بخورا فلا تشهد معنا العشاء الآخرة**)[2].

فإذا تأملت مباعدة صفوف الجنسين، ومنع النساء العطور في المسجد؛ لم يخطئ شعورك بكمال اهتمام النبي ﷺ بحفظ جناب الخشوع من أن يتشوش بتنمّل الدواعي الغريزية ..

أرأيت .. كادت كل دروب أحاديث الصلاة أن تنتهي بنا إلىٰ محراب الخشوع ..

وما زال في مفكرتي تأملات أخرىٰ دونتها أثناء تأملي لأحاديث الصلاة في صحيحي البخاري ومسلم .. ولكني أشعر أنه من غير المناسب مواصلة العرض .. فالمقصود ذكر بعض النماذج التمثيلية الدالّة .. وليس المراد الاستقصاء والاستيعاب ..

فبالله عليك أي دلالة علىٰ منزلة الخشوع والسكون والإطراق والتؤدة والتمهل في الصلاة أعظم من هذه الدلالات .. ليست القضية آية أو حديث يأمر بالخشوع .. بل هناك «منظومة أحكام» كلها تأخذ بيدك إلىٰ أن تتنفس أثير الخشوع .. وهذا يعني أننا إذا أهدرنا الخشوع لم نهدر حكمًا شرعيًا واحدًا، بل ضيعنا ثمرة كل

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

ما أسسه الشارع من ضمانات الخشوع ووسائله التي تفضي إليه . .

والمعنىٰ الشرعي الذي تتواطأ عليه نصوص كثيرة أجل وأعظم منزلة من المعنىٰ الشرعي الذي يأتي بتقريره نص أو نصان حتىٰ لو كانا صريحين مباشرين . . ولذلك كان التواتر المعنوي أعظم دلالة من التواتر اللفظي وإن توهم أكثر الناس خلاف ذلك . . لأن التواتر اللفظي المجرد قوته في الثبوت فقط، وأما التواتر المعنوي فقوته في الثبوت والدلالة كليهما، فليس المعنىٰ الذي كرره الشارع بصيغ متنوعة كالمعنىٰ الذي ذكره مرةً أو مرتين، فالتواتر المعنوي فيه قدر زائد علىٰ مجرد اليقين الثبوتي وهو «تعدد التأكيد» من الشارع . .

فإذا كان الشارع يسترسل بإصدار الأحكام الفروعية طلبًا لتحصيل الخشوع . . ثم ما زال الخشوع ليس له حضور في اهتماماتنا يوازي اهتمام رسول الله . . فأين سنذهب بوجوهنا من الله غدًا؟

وما أكثر ما تساءلت كيف يقع المرء في صلاته في أحبولة الاستلهاء والتخيلات والهواجس وهو مؤمن بأن هذه كلها من مؤامرات الشيطان التي كشفها لنا رسول الله ﷺ . . فهذه الذكريات والسرحان وحديث النفس الذي يهجم علىٰ المرء بمجرد تكبيرة الإحرام نحن نعرف مصدره جيدًا . . ومع ذلك ما زلنا ضحيته . . فأما مصدره فقد نبّهنا النبي ﷺ ما الذي يحدث بعد انتهاء التثويب أي إقامة الصلاة فقال ﷺ: (**حتىٰ إذا قُضِي التثويب،**

أقبل الشيطان حتىٰ يخطر بين المرء ونفسه، يقول له: اذكر كذا، اذكر كذا .. لما لم يكن يذكر من قبل، حتىٰ يظل الرجل ما يدري كم صلىٰ)[1] .. وفي رواية: **(فهنّاه ومنّاه، وذكره من حاجاته ما لم يكن يذكر)**[2] ..

فبالله عليك .. هل يختلف المشهد في صلاتنا عما ذكره رسول الله ﷺ؟!

فتأمل قوله «**اذكر كذا .. اذكر كذا ..**» وكيف تتزاحم فعلًا أحاديث النفس في الصلاة ترتطم موضوعاتها ببعضها وتفتح الملفات واحدًا تلو الآخر، ويسلمك السابق للاحق، حتىٰ تصبح حركتك في الصلاة انتقالات آلية لا يعقل المصلي معناها ..

وتأمل قوله «**لِما لم يكن يذكر من قبل**» ألست تجد هذا فعلًا؟! فإذا كبّرت للصلاة أثيرت أمامك الموضوعات المنسية؟!

وتأمّل قوله «**فهنّاه ومنّاه**» أي هيّج عليه المطامع والأماني .. وكم أجرىٰ المصلي من توقّعات مالية وأحلام دنيوية!

هذا هو المشهد الذي كشفه لنا رسول الله ﷺ .. وهذه هي السيناريوهات بعينها التي يستعملها الشيطان فور تكبيرة الإحرام .. كيف نعرف موضع الفخ جيدًا ثم نسمي بالله ونضع ساقنا فيه كل مرة؟!

---

(١) صحيح البخاري (٦٠٨)، صحيح مسلم (٣٨٩).

(٢) صحيح مسلم (٣٨٩).

وكم تساءلت ما أكثر أن تندلق «أذكار الصلاة» علىٰ ألسنتنا لا نعقل من معانيها شيئًا .. أصبحنا في صلاتنا كأننا أجهزة آلية تنطق نصوصًا مخزّنة مسبقًا .. وهل تعقل الآلة من ذاكرتها شيئًا؟! .. فيفوت علينا من عيش أجر الألفاظ الصلوية في الآخرة بقدر ما فات من عيش معانيها في الدنيا ..

تأمل مثلًا بعض فضائل الألفاظ الصلوية:

الله جل جلاله يجيب عبده إذا قرأ الفاتحة فيقول له: «**حمدني عبدي .. أثنىٰ علي عبدي .. مجدني عبدي .. إلخ**»[1] .. أتُرانا نتطق آيات الفاتحة ونحن ننتظر جواب ربنا؟

ثم إذا أمّن الإمام أكرمنا الله بهذا الفضل (**إذا أمن الإمام فأمِّنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه**)[2] .. فهل نحن نتحرىٰ تأمين الإمام لنحوز الفضل؟

ثم إذا جاء موضع التحميد بعد الركوع فتح الله لنا هذا الطريق للثواب كما في البخاري (**كنا يوما نصلي وراء النبي ﷺ فلما رفع رأسه من الركعة قال: «سمع الله لمن حمده»، قال رجل وراءه: ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه، فلما انصرف النبي قال: «من المتكلم؟!»، قال الرجل: أنا، قال النبي «رأيت بضعة وثلاثين ملكا يبتدرونها أيهم يكتبها أول»**)[3] .. فهل نقول هذا

---

(١) صحيح مسلم (٣٩٥).

(٢) صحيح البخاري (٧٨٠).

(٣) صحيح البخاري (٧٩٩)، صحيح مسلم (٦٠٠).

الذكر ونحن نستشعر هذا الفضل المذهل؟

فإذا بلغ المصلّي موضع «التحيات» أرشده النبي لقول: «**السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين**» وذكر النبي ﷺ من فضلها (**فإنكم إذا قلتموها أصابت كل عبد لله صالح في السماء والأرض**)[1] .. فهل نتضرع بهذا الدعاء ونفوسنا تتحرىٰ نفع كل عبد صالح؟

هذه بعض فضائل الألفاظ الصلوية .. فانظر إلىٰ عظمة هذه الألفاظ .. ولنبكِ علىٰ ما فاتنا من أجورها بقدر ما فات من تدبرها وعقل معناها أثناء الصلاة ..

ويظهر لي أن جذر الخشوع مرتبط بقضية اعتقادية .. وهي درجة العبد من منزلة الإحسان .. التي هي فوق الإسلام والإيمان

والإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه» .. وهذا الاعتقاد واستحضاره درجات متفاوتة لا ينضبط طرفاها .. فكلما صعد العبد في مرقاة الإحسان أومضت في قلبه نوافذ الخشوع .. ولذلك قال النووي عن قول النبي ﷺ «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه**»:

(**لو قدرنا أن أحدنا قام في عبادة وهو يعاين ربه سبحانه وتعالىٰ؛ لم يترك شيئًا مما يقدر عليه من الخضوع والخشوع وحسن السمت واجتماعه بظاهره وباطنه علىٰ الاعتناء بتتميمها علىٰ أحسن وجوهها إلا أتىٰ به ..، وقد ندب أهل الحقائق إلىٰ مجالسة**

---

(١) صحيح البخاري (٨٣١)، صحيح مسلم (٤٠٢).

الصالحين ليكون ذلك مانعًا من تلبسه بشيء من النقائص، احترامًا لهم واستحياءً منهم، فكيف بمن لا يزال الله تعالىٰ مطلعًا عليه في سره وعلانيته؟!)[1].

ولفت انتباهي في كتب علم السلوك أن العلماء حين يحاولون إحياء الخشوع في نفس القارئ وتذكيره بمنزلته أنهم يستخدمون المقارنة بين «الوقوف أمام ملوك الأرض والوقوف أمام ملك الملوك سبحانه» .. ثم يأخذون في العتاب والتوبيخ: كيف يسكن المرء ويتأدب ويستجمع تفكيره أمام ملوك الأرض ويعبث غافلًا أمام ملك الملوك سبحانه وتعالىٰ .. وسأعرض نموذجًا لهذه المقارنة المقصودة ..

فمثلًا يقول أبو حامد الغزالي: **(فإن أضعافه مشاهد في همم أهل الدنيا، وخوف ملوك الدنيا مع عجزهم وضعفهم وخساسة الحظوظ الحاصلة منهم، حتىٰ يدخل الواحد علىٰ ملك أو وزير، ويحدثه بمهمته، ثم يخرج، ولو سئل عمن حواليه، أو عن ثوب الملك لكان لا يقدر علىٰ الإخبار عنه لاشتغال همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حواليه، فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه)**[2] ..

ويكرر أبو حامد هذه المقارنة في موضع آخر فيقول: **(وكل**

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم، تحقيق خليل الميس، دار القلم، ص(١/ ٢٧٢).

(٢) الغزالي، إحياء علوم الدين، دار الخير، ص(١/ ٢١٧).

من يطمئن بين يدي غير الله ﷻ خاشعا وتضطرب أطرافه بين يدي الله عابثا فذلك لقصور معرفته عن جلال الله)[1].

ويستعمل ابن القيم ذات هذا الأسلوب في المقارنة بين الوقوفين لكن بصيغة أخرىٰ فيقول:

(ومَثَل من يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه؛ مثل رجلٍ قد استدعاه السلطان فأوقفه بين يديه وأقبل يناديه ويخاطبه، وهو في خلال ذلك يلتفت عن السلطان يمينًا وشمالًا، وقد انصرف قلبه عن السلطان فلا يفهم ما يخاطبه به، لأن قلبه ليس حاضرًا معه، فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان؟ أفليس أقل المراتب في حقه أن ينصرف من بين يديه ممقوتًا مبعدًا قد سقط من عينيه؟! فهذا المصلي لا يستوي والحاضر القلب المقبل علىٰ الله في صلاته، الذي قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه فامتلأ قلبه من هيبته، وذلت عنقه له، واستحيا من ربه أن يقبل علىٰ غيره أو يلتفت عنه)[2].

وهذا الأسلوب شائع في كتب علم السلوك الإسلامي .. وكنت سابقًا أظنه من ابتكار عمالقة هذا الفن لتقريب المعنىٰ الإيماني للخشوع .. ثم تعجبت حين اتضح لي أن هذا الأسلوب استعمله قبل هؤلاء كلهم رسول الله ﷺ حيث قرّب المعنىٰ

---

(١) المصدر السابق، ص(١/ ٢٢٤).

(٢) ابن القيم، **الوابل الصيب**، تحقيق عبد الرحمن قائد، نشرة مجمع الفقه، ص(٤٤).

للصحابة بالمقارنة في الأدب في القيام بين يدي المخلوق والقيام بين يدي الخالق كما في صحيح مسلم أن النبي ﷺ قال: **(ما بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامه، أيحب أحدكم أن يُستقبَل فيُتنخَّع في وجهه؟!)**[1].

ولهذا نظائر كثيرة في السنة في غير موضوع الأدب في الصلاة، ومنها مقارنة النبي ﷺ بين حرص الناس علىٰ الأجر الدنيوي وحرصهم علىٰ الأجر الأخروي! كما قال ﷺ في المتخلفين عن صلاة الجماعة: **(ولو علم أحدهم أنه يجد عظمًا سمينًا لشهدها، يعني صلاة العشاء)**[2] وقال عن التلاوة في الصلاة: **(«أيحب أحدكم إذا رجع إلىٰ أهله أن يجد فيه ثلاث خلفات عظام سمان؟» قلنا نعم، قال «فثلاث آيات يقرأ بهن أحدكم في صلاته، خير له من ثلاث خلفات عظام سمان»)**[3] ..

ونظائر هذا كثير .. والمراد أن تلك المقارنات القياسية البديعة المشار لها التي يصوغها أمثال أبي حامد الغزالي وأبو الفرج ابن الجوزي وابن القيم وأضرابهم .. أن أصلها مستقىٰ من رسول الله ﷺ .. لكن استفاض أهل العلم في التنويع عليها وتطبيقها في مشاهد جديدة ..

ضع في ذهنك مجددًا الحديث السابق في صحيح مسلم **(ما**

---

(١) صحيح مسلم (٥٥٠).

(٢) صحيح مسلم (٦٥١).

(٣) صحيح مسلم (٨٠٢).

بال أحدكم يقوم مستقبل ربه فيتنخع أمامه، أيحب أحدكم أن يُستقبَل فيُتنخَّع في وجهه؟!) .. ثم تلثّم وخذ جولة في سوء الأدب الذي يقع فيه بعض المصلين بين يدي الله .. فكم فينا من يقوم بسلوكيات يتمزق خجلًا لو رآه يصنعها ذوو الجاه من الخلق .. وهو يفعلها بين يدي رب الخلق سبحانه .. فكم فينا من يعارك أنفه ينظفه في الصلاة .. وبعضهم يكثر من حك ما يستحيا من حكّه .. وآخر يرفع سرواله في الصلاة بطريقة غير مؤدبة يرسل مطاطه يستحلي فرقعة صوته .. وسلوكيات كثيرة يجمعها «قلة التهذيب» .. تزكم الأنوف .. ويخجل المرء أن يفعلها أمام المعظّمين من الخلق .. وهو يفعلها أمام العظيم سبحانه ..

اللهم اغفر لي تقصيري في صلاتي .. واغفر لإخواني المسلمين ممن قصّر في صلاته .. وارزقنا قلبًا خاشعًا يارب العالمين ..

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ **[الحديد: ١٦]**.

جناح الذل

كثيرة هي العبارات التي تمر بالمرء في حياته قراءةً أو سماعًا، بعضها يفقده الذهن ويتشرد من الذاكرة فور مروره عليها ..

بعض الكلمات كأنها زائر دخل بالخطأ واعتذر أنه يريد السلام ويمضي فقط ..

وبعض الكلمات تحفر حروفها في الذهن .. بل لربما مضى الزمن وقد ترعرعت حولها ذرية من العبارات المتولدة عنها ..

هل للعبارات تاريخ صلاحية؟ أم أن أذهاننا كولونيالية، تؤوي وتقمع وتطرد، دون قوانين واضحة؟

وثمة كلمة في كتاب الله مرت بي ولأول وهلة سمعتها وهي تحمل سؤالًا في نفسها ..

وهي استعارة قرآنية خلبت اهتمامي .. ومكثت أفكر فيها زمنًا:

ما مراد الله سبحانه بهذا التركيب؟

وماذا أراد الله أن يوحي من المعاني من جزء العبارة الأول لجزء العبارة الثاني؟

هذه الاستعارة القرآنية هي التي اخترت أن تكون عنوان هذا الفصل، وهي قول الله: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ [الإسراء: ٢٤].

نحن نعرف أن (الجناح) جزء حسي في الطيور ركّبه الله فيها تخفق به وتتنقل .. ونرفع رؤوسنا في ميادين السماء فنرىٰ هذه الطيور تميل بأجنحتها .. فتنشرها وتصفق بها .. بل هذه الصورة ذاتها ذكرها القرآن في موضع آخر ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ﴾ [الملك: ١٩].

فوصف الله في هذه الآية أجنحة الطير وهي فوقنا في السماء إذ تبسط أجنحتها تارة فتصفّها .. وإذا تضرب بأجنحتها جنوبها تارةً أخرىٰ فتقبضها ..

ويدلك علىٰ عظمة هذا المشهد من مشاهد حركة أجنحة الطير أن الله ذكره أيضًا في موضع آخر من القرآن فقال الله: ﴿وَٱلطَّيۡرُ صَٰٓفَّٰتٖۖ﴾ [النور: ٤١].

وأشار الله لهذا المشهد بصورة مجملة في موضع آخر فقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ مُسَخَّرَٰتٖ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾ [النحل: ٧٩].

حسنًا .. هذا مشهد من مشاهد جناح الطير في كتاب الله .. وهو لا يخفىٰ علىٰ القارئ .. لكن السؤال الذي كان يقرع ذهني بصورة مستمرة هو السؤال التالي:

لماذا أضاف الله هذا (الجناح) الحسي المعروف، إلىٰ (الذل) الذي هو سلوك أخلاقي وجزء منه شعور معنوي؟

ما مغزىٰ هذه الاستعارة؟ وماذا يريد الله سبحانه بهذا التركيب اللغوي؟

ولنجعل التساؤل أكثر تحديدًا: ما هي الدلالة المتطلب إيحاؤها من لفظ الجناح بما يخدم مفهوم الذل؟

هذا السؤال تأملته كثيرًا .. وما زالت تتكشّف لي فيه دلالات فسيحة الأرجاء ..

ثم لما تتبعت تأملات البلاغيين والمفسرين في هذه الاستعارة القرآنية استحوذت علي الدهشة من تفاوتهم في استكشاف العلاقة بين الجناح والذل .. ورأيتهم داروا حول أربع علاقات ..

ومن أول من رأيته من أهل العلم طرح تحليلًا لمكونات هذه الاستعارة وتفسير العلاقة بين الجناح والذل هو العلامة القفال الشاشي الكبير (ت٣٦٥هـ)، والقفال الشاشي رحمه الله طرح وجهين للعلاقة بين الجناح والذل:

فأما الوجه الأول فهو أنه لما كان الطائر ينشر جناحه ويرفعه إذا أراد التحليق والصعود، ويخفض جناحه إذا أراد الهبوط والنزول، فناسب أن يصوّر التذلل للوالدين بأنه كأنه خفض جناح من الطأطأة والخضوع.

وأما الوجه الثاني فجوهره أن الطائر يحنو علىٰ فراخه فيلفّهم

بجناحه ويسبله عليهم تعطّفًا وشفقة، فناسب أن يصوّر التذلل للوالدين والرحمة بهم كأنه خفض جناح الطائر علىٰ فراخه.

كما يقول القفال:

(في تقريره وجهان: الأول: أن الطائر إذا أراد ضم فرخه إليه للتربية خفض له جناحه، ولهذا السبب صار خفض الجناح كناية عن حسن التربية، فكأنه قال للولد اكفل والديك بأن تضمهما إلىٰ نفسك كما فعلا ذلك بك حال صغرك. والثاني: أن الطائر إذا أراد الطيران والارتفاع نشر جناحه، وإذا أراد ترك الطيران وترك الارتفاع خفض جناحه؛ فصار خفض الجناح كناية عن فعل التواضع من هذا الوجه)[1].

هذان هما الوجهان اللذان طرحهما القفّال الشاشي رحمه الله في تفسيره، إلا أن تفسيره هذا مفقود، ولم يقع بأيدينا، ردّه الله علىٰ أمة محمد، ونحن ننقل عنه هذه المعلومة السابقة بالواسطة، من خلال ما يقتبسه المفسرون عنه.

وكثيرًا ما يمر بالقارئ في كتب التفسير قولهم «قال القفال»،

---

(١) انظر نقل المفسرين هذا التحليل عن القفال الشاشي في: الرازي، **مفاتيح الغيب**، دار الفكر (٢٠/ ١٩٢)؛ أبو حيان، **البحر المحيط**، تحقيق عادل عبد الموجود وزملائه، دار الكتب العلمية، ص(٦/ ٢٥)؛ ابن عادل، **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق عادل عبد الموجود وزملائه، دار الكتب العلمية، ص(١٢/ ٢٥٩). ولست متأكدًا هل أبو حيان وابن عادل ينقلان عن تفسير القفال مباشرة، أم ينقلان عن الرازي عنه؟ والأشبه الثاني والله أعلم.

وهذا الذي يرد في كتب التفسير هو القفال الشاشي الكبير، وأما إذا قيل «قال القفال» في كتب الفقه الشافعي الوسيط كالنهاية والوسيط والمهذب ونحوها فالمقصود به القفال المروزي الصغير (ت٤١٧هـ)، وهو نجم الطريقة الخراسانية في الفقه الشافعي، وكلاهما شافعيان، وكلاهما يكنىٰ أبا بكر، ومن هنا ينشأ الخلط بينهما، ونبّه علىٰ هذا الفرق بين القفّالَيْن أبو زكريا النووي رحمه الله[١].

وقد رأيت أطروحات أكاديمية في جمع تفسير القفال الشاشي الكبير من خلال النقولات المتناثرة عنه في كتب التفسير.

وفي القرن السابع رأيت الأديب ضياء الدين ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) يطرح تحليلًا ثالثًا للعلاقة بين الجناح والذل، ففي كتابه «المثل السائر» اعتبر أن الطائر إذا أدركه الإعياء والوهن خفض جناحه، فصوّر التذلل للوالدين بهذه الصورة، كما يقول ابن الأثير:

(فإن الجناح للذل مناسب، وذاك أن الطائر إذا وهن أو تعب بسط جناحه، وخفضه وألقىٰ نفسه علىٰ الأرض)[٢].

وبصراحة فإن هذا الكتاب لابن الأثير ثري بتحليلات تطبيقية بلغة في غاية العذوبة لكيفية صناعة الجمال البياني.

---

(١) النووي، تهذيب الأسماء واللغات، تحقيق عادل مرشد وزميله، دار الرسالة العالمية، ص(٤٤٢).

(٢) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تحقيق أحمد الحوفي وزميله، دار نهضة مصر، ص(٢/ ١٥٣).

وأما العالم المتفنن الشهاب الخفاجي (ت١٠٦٩هـ) فقد أشار إلىٰ وجه رابع، وهو أنه لما كان الطائر يحلق ويطير شامخًا، فإذا فاجأه الجارح والبازي شلّه الذعر وأعياه الطيران ولصق بالأرض وخفض جناحيه كالمطرق الذليل، فناسب أن يصوّر التذلل للوالدين كأنه خفض جناح الطائر المستسلم المطرق، كما يقول الشهاب:

(وأيضًا: هو إذا رأىٰ جارحًا يخافه لصق بالأرض، وألصق جناحيه، وهي غاية خوفه وتذلُّله)[١].

هذه أربع استكشافات لمغزىٰ الاستعارة القرآنية (جناح الذل) .. ذكر اثنتين منها القفال الشاشي وذكر الأخريين الضياء ابن الأثير والشهاب الخفاجي ..وثلاثتهم في علوم العربية بمنزلة الغُرر والحجول.

وحينما اطلعت أول مرة علىٰ هذه التحليلات الأربع لوجه الصلة بين الجناح والذل في هذه الاستعارة القرآنية مكثت زمنًا تداهمني المقارنة بينها كلما ارتطمت بموقف تسح فيه الكهولة عبراتها علىٰ موقف عقوق ..

حينما أرىٰ شابًا عليه سيماء الاستقامة لكنه يجادل والده بمنطق الند ويستظهر عليه الحجة تحاصرني مجددًا هذه الوجوه الأربعة في هذه الاستعارة القرآنية ..

---

(١) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي علىٰ تفسير البيضاوي، دار صادر، ص(٦/ ٢٤).

حتىٰ ربما خرجت من عالم الموقف المحيط بي وسرحت في عالم التأملات . .

وأبقىٰ أردد في ذهني:

هل هذا خفض جناح الذل كما يخفض الطير جناحه للهبوط؟

هل هذا خفض جناح الذل كما يسبل الطير جناحه لفراخه حنوًا عليهم؟

أهذا خفض الجناح كما يخفض الطير جناحه من الوهن؟

هل هذا الإطراق الذي يريده الله أمام الوالدين كما يطرق الطير استسلامًا أمام البازي؟

وهكذا أعيد قراءة المشهد علىٰ ضوء كل التحليلات البلاغية التي طالعتها لآية ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ . .

هل كنت أتفطّر من الفارق بين البر الشاهق في الآية وبين منحدرات العقوق في حياتنا الاجتماعية؟

أم تراني كنت أقارن بين هذه التحليلات أبحث عن الراجح منها علىٰ ضوء الواقع؟

أم تراني كنت أبحث عن أكبر قدر من التحليلات البيانية تجوب أقصىٰ ما يمكن من الجغرافيا الدلالية لهذه الاستعارة التي خلبت اهتمامي؟

لم يقف إبهار هذه الآية لي عند هذا الأفق . . بل تكشّفت لي فيها أفلاك معنوية جديدة أيضًا . .

فقد ذكر أصحاب علم القراءات أن كلمة «الذل» في هذه الآية أنزلها الله بقراءتين .. بضم الذال «الذُّل» وهي القراءة المشهورة التي نقرأ بها .. ولكن ثمة قراءة أخرىٰ لعلها أشد دلالة علىٰ التذلل منها وهي قراءة كسر الذال «الذِّل» .. وما الفرق بينهما؟

يقول ابو الفتح ابن جني أثناء توجيهه القراءتين:

(ومن ذلك قراءة ابن عباس وعروة بن الزبير في جماعة غيرهما «جناح الذِّل»، قال أبو الفتح: «الذِّل» في الدابة ضد الصعوبة، و«الذُّل» للإنسان وهو ضد العز، وكأنهم اختاروا للفصل بينهما الضمة للإنسان والكسرة للدابة)(١).

فانظر بالله عليك في هذه القراءة الأخرىٰ التي بالكسر كيف أراد الله فيها أن نكون في التذلل للوالدين كما تكون الدابة ذليلة منقادة مستكينة مطاوعة لراعيها ..

فإذا ضممت الإيحاءات البلاغية لكلمة (خفض الجناح) وأضفتها لـ(الذِّل) بالكسر الذي يكون للدابة .. انفتحت لمتدبر القرآن أقصىٰ ما يمكن من معاني الإذعان .. وأن يكون الابن هش العنان لأبويه ..

ولست في حاجة للتذكير أن الاتجاه من أهل العلم الذي ينكر المجاز له مسار مختلف في قراءة هذا التركيب وأنهم يحملون

---

(١) ابن جني، المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، تحقيق علي ناصف وزميله، نشرة لجنة إحياء التراث الإسلامي، ص(٢/ ١٨).

الجناح علىٰ الحقيقة، ولهم كلام خاص في خصوص هذه الآية[1].

كنت مرةً أراجع بعض مسائل (فقه الحسبة)، وأحكام (النهي عن المنكر)، ووجدت بعض أهل العلم استشكل مسألة وقوع الأب في المنكر، وهل ينكر عليه ابنه؟ ومنشأ الإشكال أن النفوس تشعر بأن من ينهاها عن المنكر أنه إنما يخاطبها بفوقية ..

فالإمام أحمد نقل عنه ابن مفلح في الآداب الشرعية في الفصل المعقود لهذه المسألة أنه قال: «ليس الأب كالأجنبي»، والغزالي في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإحياء قسّم الحسبة لخمس مراتب، وجعل اثنتان منها تليق من الابن للوالد وهما مرتبة التعريف ومرتبة الوعظ اللطيف، والبقية لا تليق، وذكر السنامي الحنفي (ت٧٤٣هـ) في كتابه «نصاب الاحتساب» اعتبارات أخرىٰ ..

مررت بهذه المعالجات .. وكنت أتأمل الراجح فيها .. ولكنني بكل صراحة لم أستطع أن أتجاوز عبارةً لإمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله .. حيث علّق علىٰ هذه المسألة تعليقًا بديعًا لم ينسَ فيه تلك الاستعارة التي أذهلتني .. يقول القرافي:

(المسألة الأولىٰ: أن الوالدين يُؤمران بالمعروف ويُنهيان عن

---

(١) انظر: ابن تيمية، **مجموع الفتاوىٰ**، ص(٢٠/ ٤٦٥)؛ ابن القيم، **مختصر الصواعق**، دار الكتب العلمية، ص(٢٤٢)؛ الشنقيطي، **منع جواز المجاز في المنزل للتعبّد والإعجاز**، مطبوع مع **دفع إيهام الاضطراب** للمؤلف، إشراف بكر أبو زيد، نشرة مجمع الفقه، ص(٣٠).

المنكر، قال مالك: ويخفض لهما في ذلك جناح الذل من الرحمة)[1].

حين قرأت تعقيب الإمام مالك في هذا الجواب، شعرت أنه أجاب بمشروعية النهي عن المنكر إذا وقع فيه الأب، لكن الإمام مالك تذكر هذه الآية العظيمة، ولم تغب عن ذهنه هذه الاستعارة التي تضمنتها والتي تهز قلب المؤمن، فعقّب فورًا بتهذيب أسلوب الإنكار، وقال: «ويخفض لهما في ذلك جناح الذل» . .

بل سأكاشف القارئ أنني حين قرأت تعقيب الإمام مالك هذا قلت في نفسي: هل يا ترىٰ كان مالك يفكر كثيرًا في هذه الاستعارة القرآنية؟ هل كان مندهشًا من جلالة جماليات البر فيها؟

بل إنني كنت أقنع نفسي وأقول مؤكدٌ أن الإمام مالك ما استحضر هذه الاستعارة البلاغية القرآنية في ثنايا نقاش فقهي دقيق إلا أنه كان مبهورًا بإيحاءاتها الدلالية . . لابد أن مالك كان يتساءل عن مغزىٰ العلاقة بين (خفض الجناح) و(الذل) . . وهكذا لعلي كنت أبحث عن شرعية تفكير . .

ولا يقتصر استحضار السلف لنصوص التذلل للأبوين في ثنايا الفتاوىٰ الفقهية . . بل إن أئمة السلف كان يدققون في سلوكيات البر بسمو استثنائي . .

في واحدة من أعجب القصص التي مرت بي أن التابعي

---

(١) القرافي، الفروق، (ف ٢٧٠).

الجليل ميمون بن مهران الذي روىٰ عن أبي هريرة وعائشة وغيرهم، رزقه الله بابن عالم، وهو الحافظ عمرو بن ميمون بن مهران (ت١٤٥هـ)، وهو من رجال الصحيحين، وكان هذا الابن بارًا بأبيه، وقد جاء في ترجمته:

(قال الحلبي: حدثني عمرو بن ميمون بن مهران، قال: خرجت بأبي أقوده في بعض سكك البصرة، فمررت بجدول، فلم يستطع الشيخ يتخطاه، فاضطجعت له، فمر علىٰ ظهري)[1].

فانظر إلىٰ هذه الصورة الرفيعة من خفض جناح الذل .. فحين جاء الأب الذي أرعدت السنون مشيته فما عاد يقوىٰ أن يعبر جدول ماء .. تحول الابن إلىٰ جسر يغمر نفسه في الطمي كي يخطو والده فوقه بقدميه ..

يا الله .. عليك رحمات ربي يا عمرو بن ميمون .. أكنت محظوظًا أن لم تر شابًا يستكثر أن يدفع عربة والده المُقعد تحت سياط الظهيرة أمام مبنىٰ الجوازات؟!

يا شيخنا عمرو بن ميمون .. أكانت فطرتك ندية فلم يعكرها خبر شاب يستثقل مرافقة والده في مستشفىٰ .. ينظر لوالده المغطىٰ نصفه والمكشوف نصفه الأعلىٰ لأنابيب الحياة .. ويسارق النظر لرسائل أصحابه في الجوال تستحثه للنزهة وتراوده بصور ربيعية .. فيتكلف الأعذار ليركب الريح مع أصحابه في مسامرات الضياع؟!

---

(١) ابن عساكر، تاريخ دمشق، تحقيق محب الدين العمروي، دار الفكر، ص(٦١/ ٣٥٢).

إيهٍ .. يا عمرو بن ميمون .. اضطجعت في جدول الماء فوق الطين ووالدك يدوسك بقدميه ليعبر الجدول .. أكنت يا عمرو بن ميمون أحد أنواع البلاغة البشرية التي يتحدث عنها قول الله ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾؟

ومن أغبىٰ الأوهام المنتشرة اليوم توهم أن «بر الوالدين» مربوط بكمية الخدمات الحسية المادية .. واحرقتاه من هذا الوهم .. يبدو أن عصر الماديات في أحسن أحواله لا ينتج إلا تدينًا ماديًا أيضًا ..!

لا .. بر الوالدين ليس مقصورًا علىٰ الخدمات المادية .. بر الوالدين هو «خفض جناح الذل» لهما قبل كل شيء .. البر المعنوي يفوق قيمة البر المادي بقدر ما تفوق الوجاهة قيمة الخبزة .. ألا ترىٰ الرجل الحر يتضور جوعًا وينشلّ لسانه قبل أن يكتب معروض استجداء؟!

ألا ترىٰ الحرة تجوع ولا تأكل بثدييها ..

إنها القيم المعنوية التي قال عنها دنقل يومًا: «هي أشياء لا تشترىٰ» ..

هذه النفحات المعنوية ليست إلا بعض أنفاس بيانية من دلالات «واخفض لهما جناح الذل» ..

الإمام الحافظ عبد الله بن عون (ت١٥١هـ) من كبار أتباع التابعين، فقد أدرك طبقة من تأخرت وفاتهم من الصحابة لكن لم

يسمع منهم، وهو إمام أهل البصرة في زمانه، وشيخ الأئمة المشاهير الكبار كشعبة بن الحجاج وعبد الله بن المبارك.

وبالنسبة لي فمن أكثر المواضع التي كانت تبهرني في منزلة ابن عون أن الإمام مسلم في مقدمته الشهيرة لصحيحه لما ذكر «أئمة السلف ممن يستعمل الأخبار، ويتفقد صحة الأسانيد وسقمها»، ثم أراد التمثيل لذلك، ذكر ستة نماذج من أئمة الحديث، كان أحدهم ابن عون! ومن له صلة بعلوم السنة يدرك دلالات هذا التمثيل . .

والمراد أن الحافظ عبد الله بن عون هذا ممن امتزج بروحه دلالات قول الله ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ﴾ . . ووقف علىٰ دقائق تجليات هذه الآية بحساسية شريفة . . حيث لاحظ رحمه الله أن مما يدخل في خفض جناح الذل للوالدين «مراعاة مستوىٰ الصوت»!

وهذه هي القيم المعنوية الراقية لمعنىٰ بر الوالدين حقًا . .

فقد جاء في ترجمته رحمه الله: (**عن عبدالله بن عون: أنه نادته أمه فأجابها، فعلا صوتُه صوتَها؛ فأعتق رقبتين**)[1] . .

لعلك تتذكر الآن أن الله في كتابه جعل عتق الرقبة من الكفارات في المناهي العظيمة، كقتل الخطأ والظّهار والوطء في نهار رمضان ونحوها، فانظر كيف لما صار صوت ابن عون أعلىٰ من صوت أمه . . وهو إنما رفع صوته ليستجيب لندائها فقط . .

---

(١) أبو نعيم، حلية الأولياء، تحقيق سامي جاهين، دار الحديث، ص(٢/ ٣١٨).

ولم يكن رفع صوته جدالًا أو معارضةً .. ومع ذلك حاسب هذا الإمام العظيم نفسه .. وكفّر عن أمرٍ لا يعده أكثر الناس إلا سلوكًا طبيعيًا .. ومع ذلك كله أعتق هذا الإمام رقبتين تكفيرًا عن هذا العمل!

واغوثاه .. من شابٍ يصرخ من غرفته في الدور الثاني علىٰ والدته مستبطئًا غداءه! ويتذرع بأنه مرهق ومتعب «وما هو مروِّق»!

وكيف لا تتفطر الأكباد من شابٍ يتفنن في قرع أبواق سيارته يستعجل والدته الخروج من المنزل ليذهب بها لمشوار التمسته منه! وترىٰ الوالدة المسكينة تتقافز تجمع أغراضها مشوشة الذهن تحت ضغط منبهات سيارته!

وابن عون يعتق رقبتين لأن صوته أرفع من صوتها وهو يستجيب لندائها! أي فارق فلكي بيننا وبين القوم؟!

وجاء هذا المعنىٰ أيضًا عن التابعي الجليل محمد بن سيرين (ت١١٠هـ) .. حيث كان يطبق مفهوم «خفض جناح الذل» في مخاطبة والدته .. فكان **(إذا كلم أمه كلمها كالمصغي إليها بالشيء)**[1]، و**(إذا كان عند أمه، ورآه رجل لا يعرفه، ظن أن به مرضًا من خفضه كلامه عندها)**[2].

ومن تجليات «خفض جناح الذل» كمال الأدب في طريقة

---

(١) ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، تحقيق محب الدين العمروي، دار الفكر، ص(٥٣/ ٢١٦).
(٢) المصدر السابق، ص(٥٣/ ٢١٧).